

إشكال العلم في الحضارة الإسلامية

أ.د. إبراهيم بورشاشن

مدير مركز الدراسات الفلسفية

جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية / ابوظبي

لا يمكن حصر إشكال العلم في الحضارة الإسلامية في إشكال واحد، فهناك إشكالات متعددة عاناها العلم في بلاد الإسلام. واليوم، انطلاقاً من هذا الهمم الإنساني؛ همّ السّلم وحاجة الأمة إلى ضرب من المصالحة لرأب الصدع ومقاومة التّحدّيات التي تجابهها، ننظر بجهات من النظر إلى إشكال واحد من هذه الإشكالات؛ إشكال الفصل المعياري بين العلوم الذي اخترق العقل الثّقافي الإسلامي، وشَرَطَهُ في تعامله مع المعرفة العلمية على العموم، وارتباط ذلك بالنّظام الفكري الذي ساد الثّقافة الإنسانية عموماً.

لما كان إشكال تعريف العلم يرتبط أوثق ارتباطاً بإشكال التّصنيف، نفرد هذا القول لهذين المعنيين، ونخلص منهما إلى معاني أخرى قريبة تدل على ثغرة من ثغرات الوجود الثّقافي، نحسبها أبعد عن المحلية، نشير إليها، ونأمل أن يتضافر على حلّها ثلّة من أهل البصر والبصائر. يتسع الحقل الدلالي لمفهوم العلم في القرآن والحديث مما يقتضي قولاً مستقصياً يتجاوز نطاق هذه الدراسة، فقد دعا القرآن الكريم إلى العلم، ورفع من شأن المشتغلين به، ولكنه أهم في العلم¹، وأهم كذلك في العلماء¹! وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام العلم فريضة، ولم يحدد

¹ .تحدث القرآن الكريم عن مفهوم العلم بدلالات مختلفة، في ما يناهز سبعين موضعاً، فنسبه إلى نفسه تعالى في آيات كثيرة: [قل إنما العلم عند الله/الملك:26] وسمى نفسه "علام الغيوب" / المائدة:109، ونسبه إلى الناس مؤمنهم [وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين/ النمل:42] وكافرهم [فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم م العلم/غافر:83، ذلك مبلغهم من العلم/النجم/30، وأضله الله على علم/ الجاثية:23]، وجعله نكرة

ومنونا في ثلاثة عشر موضعا منها قوله تعالى: "وقل رب زدني علما" دلالة على استغراقه وشموله. وقوله تعالى "ولو طأ آتيناها حكما وعلما/الأنبياء:74]. وقوله تعالى [وأن الله قد أحاط بكل شيء علما/الطلاق:12]. وذم العلم الظاهر، ووصفه بالعلم: [ذلك مبلغهم من العلم/النجم:30]. ووصف علم الخضر بالعلم اللدني: [وآتيناها من لدنا علما/الكهف:65]. وهو علم الأسرار الربانية، وكما يفهم من قوله تعالى أيضا [وإنه لدو علم لما علمناه/يوسف:68]. [وقال الذي عنده علم من الكتاب]، وتحدث عن علم اليقين [كلا لو تعلمون علم اليقين/الكاثر:5]. و"علم الساعة/فصلت:47]. وميز بين العلم والظن "وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون/الجاثية:24]. وميز بين العلم والهوى [ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق/الرعد:37]. وقرن بين العلم والإيمان [وقال الذين أوتوا العلم والإيمان...الروم:56]. ونفى العلم التام عن البشر "وما أوتيتم العلم إلا قليلا/الإسراء:ص85]. وجعل الضلال قرينا لفقدان العلم [ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم/الحج:71]. وآيات كثيرة [الأنعام/100، 108، 119، 140، 144]. و [النحل: 25]. و [الروم:29]. وجعل العلم درجات [وفوق كل ذي علم عليم/يوسف:76]. [ومن عنده علم الكتاب/الرعد:37]. [وقال الذي عنده علم من الكتاب/النمل:40]. وجعل العلم سببا للفرقة والعداء: [وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم/الشورى:14]. والعلم مرتبط عند بعض الناس بمرحلة معينة من العمر [ومتهم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا/الحج:5]. كما نجد في اشتقاقات العلم أنه ينسب إلى الحيوانات [كل قد علم صلاته وتسبيحه النور:41]. وما علمتم من الجوارح/المائدة:4] وينسب إلى الأمكنة [ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون /الصفافات:158]. ويربط العلم بالاستنباط [لعلمه الذين يستنبطونه منهم]. كما هو علم صاحب الكتاب، وغير ذلك كثير...

¹ جعل القرآن الكريم من صفة العلماء الخشية [إنما يخشى الله من عباده العلماء/ فاطر:28]. لكن أي صنف من العلماء هم هؤلاء؟ وتحدث عن الذين أوتوا العلم: [وقال الذين أوتوا العلم] ورفعهم درجات [المجادلة:11]. وتحدث عن الراسخين في العلم [لكن الراسخون في العلم.. الآية/ آل عمران:162] وتحدث عن الذي عنده علم من الكتاب: [وقال الذي عنده علم من الكتاب]. وهو علم خاص، ونسب العلم إلى الكفار من أهل الكتاب: [ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون/ البقرة:42]. وصنف العلماء رتبا، وجعل العالمين مظنة الفهم [وما يعقلها إلا العالمون/العنكبوت:43].

هذا العلم التحديد الجامع المانع¹، وأباح الرسول كتابة القرآن، ونهى عن كتابة الحديث، رغم أنه من أشرف العلوم، كما نهى عمر عن قراءة التوراة وأمر زيد بتعلم العبرية. والقرآن الكريم يدعو إلى التفكير والاعتبار ولكنه يحذر من ظاهر العلم، والقرآن الكريم يؤكد على الشريعة ويبرز لنا في قصة موسى مع الخضر أن هناك حقيقة تخفى على أهل الظاهر من فقهاء الشريعة، والقرآن الكريم يبرز لنا في تأملات إبراهيم عليه السلام الميتافيزيقية ضربا من العلم المحمود، ولكن الرسول عليه السلام نهى عن التفكير في ما وراء طور العقل، كما أن الله تعالى صرف الناس عن التفكير في قضايا ميتافيزيقية أبرزها "قضية الروح"، ولسعة الدلالة وتنوعها وجد العلماء من كل صنف في القرآن الكريم ما يدعم اختياراتهم العلمية وتصوراتهم النظرية.

حقا. قدمت أجوبة لمثل هذه المفارقات التي يثيرها بادئ الرأي، لكننا، وفاء لمنهجنا الذي انطلقنا منه، نرى أن خلف الحث على طلب العلم وإنفاق العمر فيه، والمحاذير المطيفة وراء ذلك كله، إخراجات تسكن مفهوم العلم، ومفهوم العلماء! وقد صدق الزمان الثقافي للمسلمين ذلك. فما العلم؟ وعلى أي أساس صنف المسلمون العلوم؟ وما نتائج ذلك؟ وكيف انتهى بالعلم المصير؟

إشكال تعريف العلم

اختلف كثيرا في تحديد مفهوم العلم²، لسعة حقله الدلالي، ولاشتباكه بمجالات كثيرة. بل إن هناك من امتنع عن تعريفه "لأنه لا يوجد شيء أعرف منه ليجعل معرفا له"، فمادامت "ماهية

¹. تعددت أيضا دلالات العلم في السنة النبوية، كما يجلي ذلك لفظ "العلم" في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

². عرف الكندي العلم بأنه "وجدان الأشياء بحقائقها" رسالة الحدود والرسوم ضمن رسائل الكندي الفلسفية" نشرة أبوريدة ص 117، وجعل خاصيته أن يكون بينا، مفيدا للحقائق الثابتة أبدا، في الصناعة العظمى ص 86. وعرفه الفارابي في كتاب الحروف بأنه "يكون ما هو غير متمكن، ولم يصير بعد صناعة، ولا

العلم متصورة تصورا بدهيها جليا، فلا حاجة في معرفته إلى معرفة¹. وجعل صاحب تاج العروس العلم والمعرفة والشعور واحدا²، وجعل الفيروزابادي العلم "حق المعرفة"، لأنه يهتم بالموضوع وجوهره ويحيط به إحاطة تامة. ويميز صاحب "الفروق في اللغة" بين العلم والمعرفة³. ولم يقطع أبو حامد في مسألة تعريف العلم فأكد صعوبة "تحديده على الوجه الحقيقي بعبارة جامعة للجنس والفصل الذاتي" ولم يمنع القدرة "على شرح معنى العلم بتقسيم ومثال"⁴. وقال الرازي بتعذر تعريف العلم⁵، وأحال ابن تيمية تعريفه، لتعذر اجتماع الشروط المحددة للماهية. لكن الفلاسفة والمتكلمين والأصوليين جعلوا العلم تصورا باعتباره "حصول صورة الشيء في العقل"⁶، وتصديقا، والحد والبرهان طريقا العلم بهما.

هو عسير الزوال" ص 81، وعرفه الجرجاني بأنه "الاعتقاد المطابق للواقع" وعرف أيضا بأنه "حصول صورة في العقل"، وعرف بأنه "زوال الخفاء من المعلوم والجهل نقيضه"، وعرف أنه "صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات" وعرف بأنه "وصول النفس إلى معنى الشيء" كما في تعريفات الجرجاني.

¹ الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، درت ج2، ص 203.

² الزبيدي، المرتضى، تاج العروس، ج 33، ص 126.

³ العسكري، أبو هلال، الفروق في اللغة.

<https://ia801407.us.archive.org/1/items/FP52567/52567.pdf>

⁴ الغزالي، المستقصى، المصدر نفسه، ص 25. وهو نفس موقف الجويني.

⁵ الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول، تحقيق شعبان محمد اسماعيل، دار السلام، الطبعة الثالثة، 2009 المجلد الأول ص 43.

⁶ الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1988، 3، ص 155، وقد عرف ابن سينا العلم تعريفا قريبا من ذلك، وجعل ابن رشد العلم مرتبطا بالعلل، فلعلم بالشيء هو علم بعلته، كما يقول في تلخيص البرهان، [تج جيرار جيهامي، ط 1، 1992، ص 373].

تأثر مفهوم العلم عند المسلمين بالأثر المنطقي الأرسطي في تعريفه؛ فارتبط بالتصور والتصديق¹، وارتبط بالكلّي كذلك؛ انسجاماً مع المقولة الأرسطية؛ أنه "لا علم إلا بالكلّي"، فأصبحت الجزئيات والفروع خارج مجال العلم لأنها لا تتناهى، والعلم لا يدرك إلا الكلّيات²، والقواعد والضوابط. وسيسهّم هذا التصور الأرسطي في نشأة المعرفة العلمية عند المسلمين، وبخاصة علم الأصول مع الشافعي، والقواعد مع القرافي، والمقاصد مع الشاطبي، وإن كان لم يؤثر كثيراً في فقهاء الفروع.

لقد تعددت التعاريف التداولية للعلم على أساس أن "العلم هو معرفة المعلوم على ما هو به"³، أو هو الذي يوجب كون من قام به عالماً⁴. لكن يظل مفهوم العلم كما تداوله المسلمون يعني "الاعتقاد الصادق الجازم الثابت"، فربط العلم بالاعتقاد، وجعل المطابقة للواقع ركناً من أركان العلم، والتماهي بين العلم واليقين درءاً للتقليد، وجعله ثابتاً لا يتغير، هي الأثافي الأربعة التي قام عليها مفهوم العلم⁵. حيث تم تعريف العلم من خلال العناصر التي تدخل في إطاره، أو ما يمكن تسميته بـ "جغرافية مفهوم العلم".

تصنيف العلوم

¹ يقول ابن خلدون في المقدمة مقدياً تعريفه للعلم: "... وكان العلم: إما تصوراً للماهيات، ويعنى به إدراك

ساذج من غير حكم معه، وإما تصديقا، أي حكماً بثبوت أمر لأمر"

² ظهر هذا المعنى في تعريف الأمدّي للعلم بقوله: "العلم عبارة عن صفة يحصل بها لنفس المتصّف بها التمييز

بين حقائق المعاني الكلية حصولاً لا يتطرق إليه احتمال نقضيه"، الأحكام في أصول الأحكام، الأمدّي، علي بن محمد، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2008، ص 11.

³ ابن فورك، الحدود في الأصول، تحقيق محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1999، ص 76.

⁴ التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج 2، مكتبة لبنان ناشرون، ط 1، 1996، ص 1222.

⁵ تراجع المقالة القيمة التي أعدها مركز ابن البناء، "مفهوم العلم في التراث العربي الإسلامي"، مجلة الدليل،

العدد الأول 2013، صص 185 - 190، وقد أفدنا منها في تعريف مفهوم العلم.

إذا كان مفهوم العلم قد استقر عند المسلمين بمعناه السابق، فما العلوم المنشودة إذن؟ وما دلالة التفاضل الذي أقامه كثير من المسلمين بين العلوم؟ إذ إن كل تصنيف للعلوم يقدم، بلغة ابن حزم، "الأفانين ... التي يطلق عليها ... اسم العلم والعلوم"¹، مما يجعله يخفي خلفية ثقافية معينة؟

إذا تواضعنا على التعريف الواحد، فإن العلوم ليست واحدا، وتصنيفها ليس على وزن واحد.

رغم أن تصنيف الفارابي يبدو موضوعيا، إذ قصد إحصاء "العلوم المشهورة ... [والتعريف ب] جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء كل ما له منها أجزاء، وجمل ما في كل واحد من أجزائه، "فإن قصده من كتابه، كما صرح أن "يقدر الإنسان على أن يقيس بين العلوم، فيعلم أيها الأفضل، وأيها الأنفع، وأيها أتقن وأوثق وأقوى، وأيها أوهن وأوهي وأقوى" فضلا عن أغراض ثقافية أخرى²، وهو ما يؤكد قوة المعتقد في التصنيف، رغم أن تصنيف الفارابي يقوم على أساس تاريخية المعرفة، كما يجليه "كتاب الحروف" أكثر.

وردد ابن الأكفاني من القرن الثامن [749هـ] في كتابه "إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد" بعضا مما ذكره الفارابي هاهنا³، وجعل تصنيفه للعلوم تلبية لحاجة الإنسان إلى تكميل نفسه الناطقة في قواها النظرية والعملية⁴، وهي النفس التي لا توجد إلا بالعلم¹. وقد حصر العلوم: أولاها

¹. مراتب العلوم، ص 81.

². مثل فضيح ادعاء المتعلم، وسبر المرء مقدار ما يحسن من العلم، وارتفاع المتأدب، وأداة ل"من أحب التشبه بأهل العلم" الفارابي، أبو نصر، إحصاء العلوم، نشرة علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، 1996، ص 15. 16.

³. ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم الأنصاري، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم "تحقيق عبد المنعم محمد عمر، دار الفكر العربي، القاهرة، ب، ت صص 91. 92.

⁴. ابن الأكفاني، المصدر نفسه، ص 91.

العلوم الحكمية النظرية، وآخرها علم تديير المنزل. وجعل العلوم الحكمة النظرية والمليّة هي "العلوم الأصليّة، وما عداها فرعية"²، فقدم دليلا علميا للعلوم المتاحة في القرن الثامن، وهي أكثر من ستين علما³. وابن الأكفاني وإن كان ذمّ بعض العلوم، فإنه لا يرى كل علم إلا نافعا⁴.

وكتب ابن سينا رسالة تعليمية في "أقسام العلوم العقلية"⁵، عرّف فيها الحكمة وقدم قسميها النظري والعملي والمنطقي بأجزائها، وكان الغرض الذي رامه من ذلك بيان "أن ليس شيء منها يشتمل على ما يخالف الشرع"، منتقدا طائفة من الحكماء يدعون الحكمة "ثم يزيغون عن منهاج الشرع" فكان سبب ضلالهم أنفسهم وعجزهم وتقصيرهم، ولم يأتهم الضلال من قبل الفلسفة، بل هي "بريئة منهم"⁶،

أما ابن حزم فقد لاحظ بعض أهل عصره من أهل الديانة، كما سماهم، يزدرون سائر العلوم، كما وجد من طلب علوم العرب وازدري سائرهما، ووجد من جاهر العلوم العداوة وتمسك بعلوم الأوائل، وبعض أهل الهندسة وعلم الهيئة أزروا غيرها من العلوم، وقوما حازوا علوم

¹. ابن الاكفاني، المصدر نفسه، ص 94.

². إرشاد القاصد، المصدر نفسه، ص 108

³. ابن الأكفاني، المصدر نفسه، صص 230. 232.

⁴. يعتقد ابن الأكفاني، أن القول بضرر بعض العلوم هو وهم ناشئ عن "عدم اعتبار الشروط التي تجب

مراعاتها في العلم والعلماء، فإن لكل علم حدا لا يتجاوزه ولكل علم ناموسا لا يخل به"" المصدر نفسه، ص 95
وص 96.

⁵. في أقسام العلوم العقلية ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، تحقيق حسن عاصي، دارقابس،
الطبعة الأولى، 1986.

⁶. في أقسام العلوم العقلية ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، المصدر نفسه، ص 94.

المنطق وانصرفوا عن سواها. يدعو ابن حزم إلى الاعتراف "بفضل سائر العلوم"، وبنه طالب العلم إلى أن يأخذ "من كل علم ما هو محتاج إليه وأن يستعمل ما علم كما يجب¹. لكن ابن حزم، جعل العلوم كلها خادمة للشريعة²، فكان معيار التصنيف عنده "الخلاص"، فالعلوم التي تؤدي "إلى الخلاص في دار الخلود وتوصل إلى الفوز في دار البقاء"³ هي العلوم الممدوحة، من أهم هذه العلوم كتاب أقليدس، وكتاب المجسطي⁴، وعلم المنطق والطبيعات والتاريخ⁵ ثم ينتقل إلى العلم الإلهي⁶، لمعالجة مسألة حدث العالم والنبوة⁷. لكن علم شريعة الإسلام هو ما يجب الاقتصار عليه لأنه "شريعة الحق" وهو أربعة: علم القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم الكلام⁸.

وهذه وغيرها أسبق من العلوم المتعلقة بالصناعات⁹، لأن هذه الأخيرة اختصت بالدنيا ومعايش الناس، والأولى اختصت بالخلاص في المعاد¹⁰، إذ المطلوب "بتعلم العلوم إنما هو ...

¹. مراتب العلوم صص 87. 89.

². يقول ابن حزم في كتابه مراتب العلوم: "فلولم يكن آخرة يؤدي إليها طلب العلوم، لما كان أحد أسوأ حالا من المشتغل بالعلم، فإذا الأمر كذلك فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض ... ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة فقط، وهو علم الشريعة" ص 89. 90.

³³. مراتب العلوم، المصدر نفسه، ص 64.

⁴. مراتب العلوم، المصدر نفسه، ص 69.

⁵. مراتب العلوم، المصدر نفسه، ص 72.

⁶. مراتب العلوم، المصدر نفسه، صص 73. 74.

⁷. المصدر نفسه، صص 73. 74.

⁸. المصدر نفسه، صص 78. 79.

⁹. مثل علم التجارة والخياطة والحياكة وتديير السفن وفلاحة الأرض وتديير الشجر وعاناتها وغرسها، والبناء...

¹⁰. مراتب العلوم، ص 81.

المعرفة بالشريعة والإعلان بها والعمل بموجبها¹، وهناك علوم آخر مطيفة بهذا العلم يدعو ابن حزم إلى الاهتمام بها بقدر².

ومن هنا لا ينبغي التعمق في علم النحو لأن ذلك "مشغلة عن الأوكد، ومقطعة دون الأوجب والأهم"³، أما "الإكثار من رواية الشعر فهو كسب غير محمود، لأنه من طريق الباطل والفضول، لا من طريق الحق والفضائل"⁴، كما لا ينبغي الاشتغال بأحكام النجوم⁵ دون معرفة أغراضه فقط حتى يطمئن قلب طالب العلم لعدم جدواه⁶. لكن يظل علم الشريعة عند ابن حزم هو المنتهى من العلم "فإن اشتغل مغفل عن علم الشريعة بعلم غيره، فقد أساء النظر وظلم نفسه، إذ أثر الأدنى والأقل منفعة على الأعلى والأعظم منفعة"⁷. فالاشتغال بالشريعة "هو الغرض والاشتغال عنها رأي فاسد"⁸.

يدعو ابن حزم إلى الاقتصار على ما في العلم من الضروري لأن "من طلب الاحتواء على كل علم أوشك أن ينقطع وينحسر، ولا يحصل على شيء ... إذ العمر يقصر عن ذلك، وليأخذ من كل علم بنصيب، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط..."⁹.

¹. مراتب العلوم صص 81. 82.

². مراتب العلوم صص 82. 83.

³. مراتب العلوم، صص 62.

⁴. مراتب العلوم، المصدر نفسه، صص 67. 68.

⁵. مراتب العلوم، صص 69.

⁶. مراتب العلوم، صص 71.

⁷. مراتب العلوم، صص 75.

⁸. مراتب العلوم، المصدر نفسه، صص 85.

⁹. مراتب العلوم، المصدر نفسه، صص 77. 78.

أما أبو بكر بن العربي فاعتبر العلوم كلها مطلوبة "للتوصل إلى العلم الأقصى، وهو معرفة الله"، وقسم هذه العلوم أقسام مختلفة؛ فقسمها إلى أقسام ثلاثة؛ علم باللفظ، وعلم بالمعنى، وعلم بوجه دلالة اللفظ على المعنى، وقسمها أيضا إلى علم دنيا وعلم آخرة، كما قسمها إلى ظاهر وباطن، كما قسمها إلى نظري وعملي، كما قسمها إلى علم عقد، وعلم عمل، وقد فصل ابن العربي في هذه العلوم في صفحات كثيرة من كتابه قانون التأويل¹، ثم جعل معلومات هذه العلوم أربعة: النفس، والرب، والعمل النافع، والضار، وفصل فيها القول²، لينتهي إلى العلوم التي تنبه عنده إلى الغرض، وهي ثلاثة؛ علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم التذكير³.

إذا كان تصنيف العلوم هو في حقيقته جزء من العلم، وكان يكشف عن روح ثقافية عميقة، فقد وجدنا من المشتغلين بالعلوم في ملة الإسلام من أقام تصنيفا للعلوم هو أشبه بحاجز حديدي بينها، فوضع فاصلا بين العلوم، وحكم على بعضها ب"الذم" وعلى بعضها ب"المدح"، وأقام حلبة صراع لها، فحرّم العلم وبدّع وفسق المشتغلين به، فكتب الكلاعي قصيدا داعيا فيه إلى العناية ب"العلوم المحمودة" النّقلية من قرآن، وحديث، وأصول دين، وعلوم فرائض، وتاريخ، ومغازي، وفقه مالكي، وعلم كلام أشعري، محذرا من العلوم القديمة⁴، وهي العلوم التي لم ير فيها ابن الخطيب في وصيته لأبنائه إلا علوما وفنونا مهجورة، لا يورث "أكثرها إلا تشكيكا ورأيا ركيكا"⁵. وهو نفس ما صنع الباجي من قبلهما عندما خاطب ولديه قائلا: "إياكما وقراءة شيء من المنطق

¹. من ص 183 إلى ص 240

². من ص 241. إلى ص 296

³. من ص 297 إلى 338.

⁴. ضمن مجموع في كتاب مخطوط بالخزانة العامة بتطوان، رقم 463.

⁵. نفع الطبيب، ج1، صص 255. 256.

وكلام الفلاسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد، والبعد عن الشريعة والإبعاد"¹، فانتشرت بين المسلمين فكرة أن هناك مناطق من العلوم محرمة لا ينبغي الاقتراب منها. وقد رد بورديو هذا الفكر الشغوف بالتصنيف القطعي إلى الوعاظ²، ولعله ليس بعيدا عن تفسير ما جرى في حضارتنا الإسلامية على أيدي هذا الصنف من الناس. فقد تكفل الخطباء والشعراء . الفقهاء بنشر هذا الفصل الحاد بين العلوم الممدوحة والعلوم المذمومة، بالترغيب في الأولى والنهي عن الثانية والتحذير منها³. ويعبر كتاب "القانون في أحكام العلم والعالم وأحكام المتعلم" للفييه المغربي الحسن اليوسي تنظيرا محكما لأفق معرفي متسع يرى أن العلم لا يحرم على الإطلاق⁴.

إن استقرار مفهوم العلم على المعنى التداولي الذي أومأنا إليه في السابق، سلطته كل فرقة على المعرفة التي تشتغل بها، إلا من عرف باتساع الأفق العلمي، وهم قليل بالنسبة إلى كثرة

¹ . الباجي، أبو الوليد، وصية الشيخ الفقيه الحافظ ابي الوليد الباجي الأندلسي لولديه، تحقيق عبد اللطيف بن محمد الجيلاني، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط2، 2002.

47. البعزاتي، الاتجاهات الكلامية في الغرب الاسلامي، منشورات كلية الآداب الرباط، ط &، 2005، ص 185.

² . انظر بيورديو، العقلانية العلمية، حول الأسباب العلمية ونظرياتها، ترجمة عادل العوا، داركنعان، للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000 ص 9.

³ . انظر على سبيل المثال موقف ابن حبوس، شاعر الخلافة المهدية، في الذيل والتكملة، السفر الثامن، صص 263. 297. وموقف الأغماتي في المصدر نفسه، صص 224. 232. وابن جبير، الذيل والتكملة السفر السادس، صص 30. 31، والفاززي، في برنامج الرعيي، صص 104. 105، وأبو حيان الأندلسي، في نفع الطيب، المصدر نفسه، المجلد الثالث صص 185. 186. وعلى سبيل الاستئناس يراجع فصل "العائق المي الفقيي" من كتابنا "مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية، دار الثقافة الدار البيضاء، 2010 صص 125. 139.

⁴ . أما موقفه من طائفة العكاكزة، فيقوم على الخشية من انفراط عقد السنن الذي تقوم عليه المدينة الإسلامية في عصره: الحسن اليوسي، المحاضرات، تحقيق محمد حجي، وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2006، ص 398.

العلماء وامتداد الزمن الطويل¹؛ فقال ابن دقيق العيد في علم أصول الفقه إنه "العلم الذي يَقْضِي ولا يُقْضَى عليه"². واعتبر برهان الدين البقاعي مجالس العلم هي مجالس الحلال والحرام³. واعتبر ابن الصلاح علم الحديث "من أفضل العلوم الفاضلة، وأنفع الفنون النافعة"⁴. واعتبر ابن السبكي الفقه واسطة عقد العلوم، وأنه قطب الشريعة وأساسها، وقلب الحقيقة إذا صلح صلحت، ورأسها"⁵. واعتبر ابن نجيم الفقه "أشرف العلوم قدرا"⁶. ودافع الإيجي عن علم الكلام باعتباره "أرفع العلوم وأعلاها، وأنفعها وأجداها، وأحراها بعقد المهمة بها"⁷. واعتبر الكندي العلم المخصوص بهذا الاسم هو العلم الرياضي، وهو العلم الذي ينبغي في نظره "أن لا نشغل أيامنا في

¹. كان بني عبد المؤمن كلهم فقهاء علماء، فقد شجعوا العلوم العقلية، واجتمع لبعضهم من كتب أهل علم النظر ما لم يجتمع لملك مغربي قبله. المراكشي.

². الطيب السنوسي، أحمد، الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية، دار التدمرية. دار ابن حزم، الطبعة الثانية، 2008، ص 13

³. البقاعي، برهان الدين، إنارة الكريما هو الحق في كيفية الذكر. تحقيق سيمان بم مسلم الحرش. مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2001، ص 33.

⁴ مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عبد الحميد هندواوي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص 9

⁵. يقول ابن السبكي: "إن الفقه واسطة عقد [العلوم] ورابطة حلها وعقدتها وخالصة الرايح من نقدها به يعرف الحلال والحرام ويدين الخواص والعوام ويتبين مصابيح الهدى من ظلام الضلال وضلال الظلام. قطب الشريعة وأساسها وقلب الحقيقة الذي إذا صلح صلحت ورأسها وأهلها سرات الأرض الذين لولاهم لفسدت بسيادة جهالها وضلت أناسها" الأشباه والنظائر، الجزء الأول ص 3، عن

النت://C:/Users/Ibrahim/Downloads/Asbaah.pdf

⁶ يقول ابن نجيم: "فإنَّ الفُقهَ أشرفُ العُلُومِ قَدْرًا، وَأَعْظَمُهَا أَجْرًا، وَأَتْمَمُهَا عَائِدَةً، وَأَعَمُّهَا فَائِدَةً، وَأَعْلَاهَا مَرْتَبَةً، وَأَسْنَاهَا مَنَقِبَةً، يَمْلَأُ الْعُيُونَ نُورًا، وَالْقُلُوبَ سُورًا، وَالصُّدُورَ انْشِرَاحًا، وَيُفِيدُ الْأُمُورَ ائْتِسَاعًا وَأَنْفِتَاحًا" الأشباه والنظائر، عن النت. ص

http://www.islamicbook.ws/asol/alahbah-walndhaer-labn-njim-.pdf 1

⁷. عبد الرحمن الإيجي، المواقفات، عالم الكتب. بيروت. ب. ت 4

دهرنا كله إلا في طلبه، وشدة البحث عنه"¹، لأنه "العلم الثابت الحقي بلا تغيير ولا اختلاف"². وقسم الشاطبي في المقدمة التاسعة العلم إلى صلب، وملح، وما ليس صلبا وملحا، وجعل الأصل والمعتمد ومدار الطلب على ما أسماه بـ "صلب العلم"، وجعله منتهى "مقاصد الراسخين"³.

يرى كل عالم مجال اهتمامه هو العلم بإطلاق، فأصبحت أحادية الاهتمام العلمي سببا في الفرقة. يتم حصر العلم في مواد بعينها، وعضو الجمع بينها، وخاصة أن عقلية المسلمين تقوم على أولوية الجمع على الترجيح، يتحول العقل الترجيحي إلى عقل إقصائي تحريبي، بل وتجريبي في بعض الأحيان؛ تُحرّم العلوم ويُجرّم أصحابها.

والقضية كلها ما العلم المطلوب؟ ومن أين يُستمد العلم؟ أيستمد من القرآن والحديث فقط؟ أم يستمد أيضا من العلوم العقلية أم من التجربة الذوقية؟ أم يستمد من النظر في الطبيعة؟ قبل أن يقول الكثيرون في القرون اللاحقة إن العلوم تستمد من جدلية علاقة النظرية بالتجربة. ثم ما الضروري من المعرفة العلمية، وما الكفائي فيه؟ وما منزلة العلوم الحادثة في الملة من العلوم الإسلامية؟

لقد انتظم العلم في جهات ثلاث؛ جهة عقلية انتظمت حول الخطاب القرآني. والسنة النبوية ومتعلقاتها من علوم الآلة. وجهة عقلية انتظمت حول الفلسفة المنقولة ومتعلقاتها من العلوم الطبيعية والرياضية. وجهة ذوقية انتظمت حول التجربة الذوقية ومتعلقاتها من "علوم المكاشفة" و"علوم الأسرار". وإذا كان البعض فقد استجمع القدرة على الجمع، فإن الذي ساد هو الفرقة العلمية حيث اعتبر كل مشتغل بعلم من العلوم أن علمه أشرف العلوم، فانكفاً عليه،

¹. الكندي، في الصناعة العظمى، تحقيق عزمي طه، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018، ص 76.

². الكندي، في الصناعة العظمى، المصدر نفسه، ص 86.

³. المواقفات، نشرة أبو عبيدة مشهور، ص 107.

واحتد الصراع، والمسألة كلها يمكن تلخيصها في "الاتصال بين المعرفة والمعتقد"¹، وكذا في طبيعة النظام الفكري السائد في زمان ومكان معين.

مفاهيم ثلاثة

إن إشكال العلم عند المسلمين، من هذه الزاوية التي أسلفنا الوقوف عندها، مرتبط في تقديري بمفاهيم ثلاثة: مفهوم "الحاجة الحضارية"، ومفهوم "الحاجة النفسية"، ومفهوم "الكفاية المعرفية" الحاجة الحضارية:

يرتبط العلم بالوفاء بالحاجات الحضارية لأمة ما في زمن معين، وسياق معين، بل ومكان معين أيضا، فليس عبثا أن ظهر المذهب الحنفي في العراق وظهر مذهب مالك في الحجاز. بل وليس عبثا أن تميزت العلوم الفلسفية مع الكندي، في عصر المأمون الذي أسس لها "بيت الحكمة"، وكان حلمه الشهير تنبئها لهذه الحاجة الحضارية المومى إليها، وليس عبثا أن نضجت هذه العلوم في عصر الفارابي وذاعت وانتشرت مع ابن سينا، وليس عبثا ازدهار العلوم الفلسفية في الأندلس بين القرن الخامس والقرن السادس الهجريين. وليس عبثا أن انتشرت علوم التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين حيث تحولت حاجات الأمة وغيرت دقّتها.

إن نشأة العلوم الحادثة في الملة وغيرها، وذيوعها يرتبط بحاجات حضارية محددة، وكما نضجت المعرفة في عصر من العصور إلا وتولدت عنها معارف وعلوما تجيب عن إشكالات العصر وهموم الوقت. وما أبعدنا عن فهم "علم أصول الفقه" و"علم الكلام" و"علم المقاصد" و"علم العمران"، و"علوم التصوف"، وغيرها من علوم المسلمين إذا فصلناها عن الحاجة الحضارية للأمة

¹ "بما أن المعرفة العلمية تتطور داخل بيئة سمّتها التنافس والصراع بين القوى الاجتماعية، فإنها لا يمكن أن تشكل نظاما محايدا تماما من المسلمات والقوانين التي تصف عالما معينا، بل إنها تؤثر وتتأثر بمكونات أخرى من الفاعلية الفكرية ومن محيطها الثقافي الواسع الذي تنغمس فيه". عنوان مقالة البعزاتي، بناصر، ترجمة سعيد البوسكلاوي، مجلة يتفكرون، العدد الخامس، 2015 صص 262.

في سياق زمني ومكاني معين، وعدم التجاوب مع العصر وهمومه من أشد أسباب الذهول عن الجذّة العلمية...

الحاجة النفسية :

الحديث عن الحاجة النفسية حديث ذون شقين؛ شق يتعلق بالجانب الفكري الذي هو مرتبط بلذة العلم، وجانب شخصي متعلق بما يجده كل عام من لذة عند اشتغاله بعلم معين؛ تجد طوائف من أهل العلم في العلم إشباعا لحاجاتها النفسية، وبخاصة حاجات الفكر، فتشتغل به، خاصة أن العلم يدعم معتقدا، مما يسعى من خلاله العالم إلى إيجاد ضرب من التوازن لنفسي والترقي في المعراج المعرفي، فضلا عما يترتب عن العلم من لذة اعتبرت أشرف اللذات¹. فليس هناك لذة اتمّ وأشدّ من لذة العلم، والسعادة العقلية، التي موضوعها الفكر، هي سعادة تامة ومكتفية بذاتها، "وهذه السعادة لذيدة في نفسها"²، وقد جعل البعض من شرط تعلم العلم أن يكون العلم مما تميل إليه الطباع، إذ ليس "كل من يصلح لتعلم العلم يصلح لسائر العلوم"³. فكل متفرغ لعلم ما لا يقاد إليه بالسلاسل⁴، بل نجد كل متفرغ لعلم ما يصرح بحبه له، فوجدنا ابن رشد يعبر عن محبته للعلوم العقلية وحرصه على تعليمها وتعلمها، وكذا صدر الدين الشيرازي كلفا ب"العلوم

¹. يقول العزبن عبد السلام: "إن لذات المعارف والأحوال أشرف اللذات" القواعد الكبرى، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة 2015، ص 12

². أبو الحسن العامري، السعادة والإسعاد، في السيرة الإنسانية، تحقيق أحمد عبد الحلیم عطية، دارالمدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2018، ص 171. 172.

³. إرشاد القاصد، المصدر نفسه، ص 99

⁴. يعجب أبو بكر بن العربي "لقوم يقادون بالحكمة إلى الحكمة، وإلى العلم بالسلاسل"، قانون التأويل، تحقيق محمد السليمان، دار الغرب، تونس، الطبعة الثانية، 2010، ص 69.

العقلية المحضبة" منقطعا إليها¹، والشواهد على وفاء العلوم بحاجات نفسية عميقة تعكسها مقدمات الكتب العلمية في كثير من الأحيان.

وهم الكفاية المعرفية:

يترتب عن الحاجة النفسية أن التفكير العقلاني لا يجد في المفاصلة مساحة محايدة للحضور، لأن التعلق بالمعتقدات مرتبط بما تمنحه من شعور عميق بالاستقرار النفسي، مما يترتب عنه اعتقاد أن ما يشتغل به المرء هو العلم، والعلم وحده، وهو معتقد ناشئ عن وهم الكفاية المعرفية، يؤدي إلى ضيق الأفق والاحتراب. ومنها ما ذهب إليه الشيخ زروق عندما قال "العلوم ثلاثة: علم الأديان وعلم الأبدان وعلم الجنان" ثم يقول في التصوف أي علم الجنان: "وما سواه فضول أوهديان"، وقد رد عليه اليوسي بأن "العلوم كلها لا تخلو من نفع، ولو بالتبع"². وقد نبه ابن الأكفاني على أهمية الانتباه إلى "أن لكل علم حدا لا يتعداه"³، حتى نتقي وهم الكفاية المعرفية "... فمن الوجوه المغلطة أن يظن بالعلم فوق غايته"، أو يظن به فوق مرتبته في الشرف⁴. أو أن "يعتقد في علم أنه حصل منه على مقدار لا يمكن الزيادة عليه"⁵، وينبه ابن حزم أنه "من اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره، أو شك أن يكون ضحكة، وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه، أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم ببعضها ببعض"⁶.

¹. الشيرازي، صدرالدين، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، 1999 ن ص 2.

². اليوسي، الحسن من مسعود، القانون في أحكام العلم، تحقيق حميد حماني اليوسي، مطبعة فضالة، لمحمدية، 2013 ص 273.

³. إرشاد القاصد، المصدر نفسه، ص 104.

⁴. إرشاد القاصد، المصدر نفسه، ص 95.

⁵. ابن الأكفاني، المصدر نفسه، ص 103.

⁶. مراتب العلوم، المصدر نفسه، ص 77.

مواقف ثلاثة

تقودنا هذه المقولات الثلاث إلى التمييز بين مواقف ثلاثة: "العداء المعرفي" و"الخصام المعرفي"، و"التأجيل المعرفي"، وإن كانت هذه المواقف تفضي، أحيانا، بعضها إلى بعض في نظام معرفي تحكمه الشمولية والفكر الوحيد وسؤرة المعتقد؛
العداء المعرفي ويفترض الشمولية.

عندما يسود نظام معرفي معين لا تصبح للمعرفة المخالفة أية قيمة معرفية، بله وجودية، ولا يمكن فهم الاحتراب العلمي في الحضارة الإسلامية دون هذا المعطى الإبيستمولوجي الهام.

فقد ناصب الفقهاء المتكلمين العداء ونزوهم بأنهم أهل الأهواء. ودعوا إلى مفاصلتهم، وفتاوى ابن عبد البر من علم لكلام بادية في كتابه الذي خصه للعلم.

وناصب الفقهاء المحدثين العداء ونزوهم، وقصة ابن وضاح وأستاذه بقي بن مخلد شهيرة في الأندلس، وقد أبرز أبو سليمان الخطابي في مقدمته لـ"معالم السنن"، بعضا من هذا العداء المتبادل بين الفقهاء والمحدثين وجلى مظاهره وأسبابه النفسية والمعرفية¹.

¹ سجل أبو سليمان الخطابي في مقدمة كتابه "معالم السنن" الذي جعله شرحا على سنن أبي داود هذا النفور الدائر في عصره بين أهل فقه ونظر وأصحاب حديث وأثر؛ فشغل أهل الحديث بـ"الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث" فذهلوا عن "المتون ولا يتفهمون المعاني ولا يستنبطون سرها ولا يستخرجون ركائزها وفقهها"، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل "ربما عابوا الفقهاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن". أما أهل الفقه فظلت بضاعتهم في الحديث مزجاة، لا يعرجون إلا على أقل الحديث، ويتعذر عليهم التمييز بين فيه بين الصحيح والسقيم، وبين الجيد والرديء، بل إن الفقهاء كثيرا ما يحتمون بأحاديث ينصرون بها مذهبهم فيقبلون الخبر الضعيف والحديث المنقطع "إذا كان قد اشتهر عندهم وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير ثبت فيه أو بين علم" ويعتبر الخطابي أن هذا الموقف الفقهي "ضلة من الرأي وغيا فيه". معالم السنن، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، طبعه وصححه محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب الطبعة الأولى 1932.

وناصب الفقهاء بعضهم البعض العداء كما اشتهر عن خصومة المذهب الحنبلي للمذهب الحنفي على الخصوص. وخصومة الأحناف للشافعية، وخصومة المالكية للأحناف، حتى أصبح الصلاة الواحدة تقام في الأزهر بعدد أصحاب المذاهب...

وناصب الفقهاء الصوفية العداء وحذروا منهم، وموقف الإمام أحمد بن حنبل من المحاسبي موقف مشهور، وكذا موقف فقهاء المرابطين من الإحياء.

وناصب الفقهاء الفلاسفة العداء وكفروهم وبدعوهم وفسقوهم لاعتبارات معرفية أولا قبل أن يُجرّحوا أشخاصهم، ومحنة ابن رشد أجلى مثال على ذلك.

كما ناصب المتكلمون المحدثين العداء كما تحكي قصة المعتزلة مع المحدث الكبير أحمد بن حنبل. وقد أبرز ابن قتيبة في كتابه "تأويل مختلف الحديث" بعض مظاهر عداء المتكلمين لأهل الحديث.

وناصب الفلاسفة الفقهاء العداء منذ الكندي، أول فلاسفة الإسلام على ما هو مرجح الآن. كما ناصبوا الصوفية العداء لقولهم بـ "العلم اللدني" ونهجهم طرقا في المعرفة غير نظرية¹، وناصرها علماء الكلام العداء لجدلية طرقهم وعواصمتها، ومناهج الأدلة لابن رشد يفي ببعض ذلك. الخصام المعرفي ويفترض النسبية.

¹ نشأ مع المحاسبي والجنيد مفهوم جديد للعلم مرتبط بمواضيع ثلاثة: الله، والآخرة، والحلال والحرام، ومن هنا وجدنا عندهم "العلم اللدني" و"علم الشريعة"، ووجدنا عندهم علم الربوبية و"علم العبودية". وأصبح التوحيد عند الجنيد مدار تجربته الروحية، فكان "الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد" هو "أشرف المجالس وأعلاها" عند الجنيد، و"يلتبس مفهوم العلم عند الجنيد كثيرا بسبب ترده بين مفاهيم "الحيرة"، و"السِر"، و"قصور العبارة"، و"الشيخ"، و"الفناء"، "علم الظاهر"، "علم الباطن"، "الإشارة"، "الحقيقة"، "الحق"، "الله تعالى"، "الكتاب"، "السنة"، "الأدب"، "العمل"، "علم الفتيا والأحكام"، "علم القلوب"، "علم اللسان"، "الشريعة"، "علم الربوبية"، "علم العبودية"، "المعرفة"، "الأحوال"، وغيرها من المفاهيم التي تدل على العمق الإشكالي لمفهوم العلم عند سيد الطائفة: الجنيد.

وهو أساس الغنى المعرفي ويسهم في إبداع علوم ومعارف جديدة. لأنه يقوم على التنافس من جهة وعلى المنهج الجدلي الإشكالي، ولم يعدم المسلمون استعمال هذا المنهج المنطقي. الفلسفي في تجديد علومهم وبنائها، كما نجد عند الشافعي في الأم، والجويني في "البرهان"، والغزالي في "مقاصد الفلاسفة" و"تهافت الفلاسفة"، وابن خلدون في "المقدمة"، ويبدو أن الشاطبي في "الموافقات" أسس لمعارفه الفقهية، بعقل فقهي يشتغل بأدوات ميتا. فقهية.

التأجيل المعرفي ويفترض الأولوية.

اعتبر الماوردي "أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة" لكن "الإحاطة بجميعها محال"¹، وأكد ابن الجوزي أن كل علم ممدوح، لكن لـ"قصر العمر وجب تقديم المهم والفضل"²، وهو في نظري مما تتباين فيه الآراء، وإن كان ابن الجوزي يتحدث عن علوم وضعية محددة³، فمعيار الشرف، أو قضية "شرف العلوم" ارتبطت بالعلوم جميعها كما صرح الماوردي، لكن كل يرى علمه أشرف العلوم. وبالتالي كان لتقديم المهم والأفضل سنداً معيارياً عند كل مشتغل بالعلوم، كما نجد عند ابن حزم في مراتب العلوم⁴. فالفقيه الظاهري وهو يدعو إلى الاهتمام بالعلوم ينبه إلى ضرورة "أن يتهم المرء بالعلوم الممكن تعلمها التي قد ينتفع بها، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به، ثم الأهم فالأهم، والأنتفع فالأنتفع"⁵. ويستند هذا التنبيه

1. الماوردي محمد بن حبيب، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1978، ص 26

2. الحث على حفظ العلم، المصدر نفسه، ص 24.

3. الحث على طلب العلم، المصدر نفسه، ص 23

4. يؤكد ابن حزم على أهمية هذا المعنى في مراتب العلوم؛ أبو علي، ابن حزم، رسالة في مراتب العلوم، ضمن

رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة لعربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1983

الجزء الرابع، صص 65. 74

5. ابن حزم، مراتب العلوم، ص 62.

عنده على أساس معرفي في أن إدراك أرفع العلوم لا يكون إلا بإدراك أدناها، فيتم تأجل مدارس بعض العلوم 'إلى حين الإحاطة المجملّة بما يبرئ لها.

لكن قد يكون ما أسميناه ب "التأجيل المعرفي" تعبيراً عن الاستهانة بعلوم معينة، خاصة إذا علمنا أن لكل فرقة علمية أعز ما تطلبه، وأفضل ما تكتسبه، وأنفس ما تذخره، وأحسن ما تعمله، إذا نحن استعرنا لغة ابن تومرت، فتجعل الاشتغال بعلومها الأثيرة تعلقة لتخسيس غيرها من العلوم.

لقد أدّى العداء المعرفي كما جسّدته الخصامات المعرفية القاتلة أحياناً للعلوم وأشخاصها، مع الزمن إلى فقر في العقل العلمي عند المسلمين في مقابل تضخم العقل الفقهي والوجدان الصوفي خاصة بعد القرنين الخامس والسابع الهجريين حيث ساد التقليد وعمّ، وأصبح الفقيه هو الذي يحفظ أكثر كما نبه إلى ذلك ابن رشد في بداية المجتهد¹. وترجم ابن الجوزي معاصر ابن رشد في المشرق ذلك في قوله: "فليس العلم إلا ما حصل بالحفظ"². وعبرت عنه شكوى أبي بكر بن العربي من فقهاء زمانه الذين عجزوا عن فهم كتب السّماني الأشعري، في الفقه والكلام، التي جليها الباجي من المشرق³ بسبب ركونهم إلى الحفظ ليس غير. فأصبح سلوك الإنسان المسلم محكوماً بفتاوى عوام الفقهاء، الذين عدموا فعل الاجتهاد، والذين لا يجدون للفعل الإنساني قيمة إلا في إطار الأحكام الخمسة المعروفة، واختفى عنصر الذاتية والاجتهاد وارتباط الفقه بالنفس، وسننتظر موافقات الشاطبي لتذكرنا أن المرء فقيه نفسه، على غرار قول ابن خلدون "الناقد البصير قسطاس نفسه"، مع العلم أن "الموافقات" و"المقدمة" كانتا لقرون خلت صوتاً دون رجوع صدى. بل إننا وجدنا في القرون الأخيرة من أكثر من "علوم الأسرار"، واستقر على

¹. أبو الوليد، ابن رشد، بداية المجتهد، ج5، ص 69.

². أبو الفرج، ابن الجوزي "الحث على حفظ لعلم"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1985.

ص 13.

³. قانون التأويل، المصدر نفسه، ص 76. 77.

التمييز في العقل بين عقليين: عقل ظلماني وعقل نوراني؛ فالظلماني به يدرك كل ما هو مرتبط بالمادة، مع العلم أنه سبب ما توصل إليه الغرب من اكتشافات، لكنه عند الفقيه المسلم لم يدرك به سوى "الأشياء الظلمانية"، وعقل نوراني "يدرك به المؤمن المسائل المعنوية كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله"¹، وبالتالي نجد التمييز بين العلوم من حيث المدح والذم مع الكلاعي في نونيته يتعمق في القرن التاسع عشر بالتمييز بين العقل النوراني والعقل الظلماني². وكاد العلم أن يختفي من مساجد المسلمين، وحال المسجد الأعظم في دمشق في القرن التاسع الهجري كان مثالا شاهدا على بعض من ذلك³.

¹ الفاسي، محمد الطاهر بن عبد الحمن، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967

² كما سيميز الأوروبيون في العصر الحديث بين العقل والعاطفة، والتفكير والشعور "وأكثهما عالمان لا يلتقيان في الروح الإنسانية". البعزاتي، الاتصال بين المعرفة والمعتقد، المصدر نفسه، ص 262.

³ يحكي برهان الدين البقاعي أنه لما عاد من مصر إلى دمشق وجد في جامعها الأعظم "قوما يتحلّقون ومهلّون بصوت واحد ... ذكرا يخرجونه بالأصوات المزعجة، والزعقات المرجفة المدمجة، والقيام المصاحب للوثب الفاحش، والدق بالأرجل على هيئة مهولة منكرة، وكيفية جدا غير مقبولة، حيث يزج دكهم ووثهم، ودقهم، وهم في الجامع... فلا يدعون مصليا يعرف كيف يصلي، ولا ذاكرا يعي ما يذكر، ولا مدرسا يفهم ما يدرس. ولا تاليا يحفظ ما يتلو". إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر، تحقيق سليمان بن مسلم الحرش، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2001، ص 23.24.

الواحات المعرفية

إننا ونحن نتحدث عن مواطن الزلل العلمي في مسار الحضارة الإسلامية، على وعي تام بالواحات المعرفية الغنية لهذه الحضارة والتي تمثلت في مدن عامرة¹، وكتب نيرة تتداول في هذا المحفل العلمي أو ذاك، وعلماء ارتاضوا في مرابع العلوم كلها بفكر ناقد وقلب مفتوح، فوجدنا من العلماء المسلمين، من جمع بين المعارف وأنتج إنتاجات معرفية كان لها أكبر الأثر في تاريخ الثقافة الإسلامية؛ الشافعي بجمعه بين الفقه والحديث واطلاعه على علوم عصره، أنتج علم أصول الفقه. المحاسبي بجمعه بين الفقه والحديث وإيمانه بقدرة العقل على خوض الموضوعات غير المطروقة وبتجربة ذاتية فريدة أنتج علم التصوف بصحبة تلميذه الجنيد، ليصل مرتقاه مع محيي الدين بن عربي ب"الفتوحات المكية" دائرة المعارف الحقيقية للتصوف الإسلامي². وابن رشد بجمعه بين الفقه والفلسفة أنتج كتابا من أجل كتب الفقه المقارن؛ "بداية المجتهد"، والشاطبي بانفتاحه على مجمل المعرفة العلمية في عصره ابتدع علم المقاصد، وأنتج "الموافقات"، وابن خلدون كذلك وبنفس المنطق، وفي نفس العصر، ابتدع "علم العمران"³، وشعر بجذته العلمية⁴

¹. لا يمكن فصل الحركة العلمية عن المدن الإسلامية العامرة عواصم وغيرها؛ مثل بغداد ودمشق

وقرطية واشبيلية ومراكش وفاس وغيرها من المدن...

². يحي، عثمان، مؤلفات ابن عربي تاريخها تصنيفها، ترجمة أحمد الطيب، الهيئة المصرية العلمية للكتاب،

2001 ص 18.

³. يقوم علم العمران عند ابن خلدون على إدراك ما "يعرض في الاجتماع الإنسان من الأعراض الذاتية ما

يتمتعك بعلى الكوائن وأسبابها" المقدمة ج 1 ص 10.9، ويراجع: البعزاتي، بناصر، بعض سمات التدليل

الخلدوني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 29، 2009، ص 13.

⁴. يقول ابن خلدون عن علمه: "وكانه علم مستنبط النشأة" ويقول: "وكان هذا علم مستقل بنفسه" القول فيه

"مستحدث الصنعة، غريب النزعة، عزيز الفائدة، أعتز عليه البحث وأدى إليه الغوص"، المقدمة، ج 1، ص

وأنتج "المقدمة". وكذا يمكن القول عن "كتاب سيبويه" في النحو، و"أسرار البلاغة" للجرجاني في مجال البلاغة، وغيرها من الكتب التي فتحت أفقا متسعا للعقل الإسلامي.

فضلا عن ذلك هناك الثورة الفلسفية والمعرفية في مجالات العلوم الإسلامية مع الفارابي وابن سينا وابن باجة وابن طفيل وابن رشد، وكذا مع ابن الهيثم والخوارزمي وابن حيان والزهراوي وأسرّة ابن شاكّر، وابن هيدور وابن البناء وغيرهم ممن حمل مشعل المعرفة العلمية في مشارق الأرض ومغاربها. فقد ازدهرت الفلسفة في العالم الإسلامي في فترات زاهرة، كما ازدهر علم الفلك والبصريات والهندسة في المشرق ومصر والأندلس وطورت آليات في الاشتغال مثل التحليل والتركييب وبرهان الخلف¹، وكان المسلمين كانوا يرون أن تعبيرات العلم إنما هي أشبه بالصور، وليس هناك من صورة تعبر عن كل تفاصيل الحقيقة²، مترجمين ذلك في لغة مقاصدية تقول: إن الطرق إلى الحقيقة بعدد أرواح العلوم.

أثنت هذه الواحات المعرفية مدارس علمية متفرقة مثل "المدرسة النظامية" التي أسهمت في تجديد علم الأصول مع الغزالي، ومدرسة الطوسي³ التي أسهمت في تجديد علم الفلك، وقبلها مدرسة الاعتزال التي أسهمت في تجديد العقل الديني، مدارس قدمت إرهاصات على أن "التفاعل بين الفكر الفلسفي والفنون والصنائع هو المحرك للتقدم"⁴، كما سيتجلى للعيان في العصر

¹. البعزاتي، بعض سمات التدليل الخلدوني، المصدر نفسه، ص 27،

². البعزاتي، الاتصال بين المعرفة والمعتقد، المصدر نفسه، ص 272.

³. اشتغل الطوسي "مع جماعة علمية، بجانب القزويني الكاتي وآخرين، وكون بحّاثين مرموقين في مختلف العلوم العقلية منهم قطب الدين الشيرازي الذي جدد في علم الفلك، وتلميذه كمال الدين الفارسي الذي جدد في علم المناظر، كما أن تلميذ الطوسي، الفيلسوف العلامة الحلي نبغ في الفلسفة والأصول، وعليه درس قطب الدين الرازي، ثم الإيجو والتفتازاني بكيفية غير مباشرة"، بعزاتي، عن سمات التدليل، المصدر نفسه ص 39.

⁴. بعزاتي، بعض سمات التدليل ... المصدر نفسه، ص 40.

الحديث. إذ لا يمكن فصل ازدهار العلم أساسا بمتعلقاته الحضارية فهناك وحدة متماسكة تجمع "بين الازدهار العمراني والفاعلية الفكرية والنشاط الاقتصادي"¹.

وهكذا، ما نرى في حلقات العلماء المسلمين من إبداع إلا ونجد وراءه فكرا منفتحا على مجمل الثقافة العلمية في العصر، وازدهارا عمرانيا، مع ضهور الحواجز وخفوتها إلا حاجز النقد والمنهج الإشكالي الجدلي.

رؤية الذات في مرآة الآخر .

لكن المحبة القوية التي تربط بين المعارف وتُجَدِّدها، وتقود العقل الإسلامي في مسار نهضته بجناحي العقل والوجدان، ما كان لها أن تستوثق، أو ما كان ينبغي لها ذلك، إلا في العصر الحديث، رغم الإكراهات التاريخية التي ما تزال تثقل كاهلها الثقافي. تتاح للمسلمين اليوم مناسبة حضارية لتجديد نظرتهم إلى العلم، وإلى الذات كذلك؛ فالنظام المعرفي تغير، وطُرات على المسلمين تغييرات مذهلة في عالم جديد هياهم للانفتاح ويجبرهم عليه. وسيزداد ذكاؤهم وحدهم وتعقلهم بتفاعلهم مع ما أنتجه العقل الحديث من العلوم والفنون والفلسفة والمنطق². وإن اعترافهم بتاريخية ثقافتهم ومحدوديتها وتداخلها مع الثقافات الأخرى، طلبا للحوار، يجعلهم أقرب إلى الاعتدال والاعتراف المتبادل.

لقد كانت الرسائل الفارسية لمونتسكيو، بخيالها البديع، فاتحة خير على الأوروبيين لأنها أرتهم وجوههم، لأول مرة، في المرآة، وقد اعتبرها فولتير إهانة للفرنسيين، لأن مونتسكيو أراهم الجانب النسبي في شخصيتهم، إذ كان خير من سخر من الفضول التافه عند الباريسيين ومن الأحاديث السفسطائية البراقة³، ونحن المسلمين ما كنا لنرى وجوهنا في المرآة لولا ما يمكن تسميته

¹. بعزاتي، بعض سمات التدليل الخلودني، المصدر نفسه، ص 34-35.

². بعزتي، عن سمات التدليل، المصدر نفسه، ص 36.

³. كما يقول جوستاف لانسون في القرن التاسع عشر، وفي القرن الثامن عشر رأى فولتير في الرسائل خطأ من

ب "فتنة الاستعمار" بكل ما تحمله كلمة فتنة من دلالات في السياق العربي الإسلامي، فرأينا أنفسنا في أدب الرحلات إلى الديار الغربية، حيث الدهشة كانت الموقف البارز¹، فدعا بنسعيد

معالجة الأشياء التافهة جادين، وقلبنا الأمور الهامة مزاها، وأحاديثنا الصاخبة البالغة في التفاهة، وضيق صدورنا في مجال المرح و أقيستنا و أفعالنا التي تناقض دائما علمنا وحبنا للمجد مشفوعا باحترام المنفعة الذاتية، وملقنا الوضيع الذي لا فائدة منه، وتظاهرننا بالأدب مع الأجانب مع احتقارنا لهم، أوتصنعنا التحبب إليهم، و غرابة أذو اقنا التي لا يفوقها غرابة إلا مسارعة أوروبا كلها في الأخذ بها، واحتقارنا أجدرا الأعمال بالاحترام وتشغل مواطنينا: وهي التجارة والتشريع وجدنا الأدي الحارّ الذي لا طائل تحته، واندفاعنا في الكتابة دون رؤية، وحكمنا على الأشياء قبل اختبارها"، ورأى فيها لمويرتوي "الحكمة الممزوجة بالمتعة، والمعاني الكثيرة المركزة في ألفاظ قليلة" وقد انتبه لا هارب أيضا إلى أن "التهكم كان السلاح الذي يستخدمه [مونتسكيو] في كل الأحوال، حتى ضد محكمة التفتيش، بل إنه إذ ذاك يزداد تهكمه مرارة لينقض من هيبة هذه المحكمة"، وقال ج. شينير في القرن التاسع عشر إن "السخرية سلاح ماض في يد مونتسكيو يحقق به فلسفته"، ونبه قيلمان إلى أن مونتسكيو ساوى ملا يروبير في ذكائه اللاذع في تصويره للشخصيات، وفي الإغراق في السخرية وفي قوة الإفصاح عن الأخلاق، كما حاكى باسكال في تعبيره القوي الحاد ... وفي تشككه الشاذ، وخياله المرهف الذي انفعلت به نفسه" واعتبر أن الطابع السائد في هذه الرسائل، التي سماها ب "الرسائل الأبيقوية الساخرة هو دراسة السياسة، وفلسفة التاريخ، وهي دراسات جديدة في فرنسا"، انتقد فيها رجال الدين، وصالونات الأدب في باريس والسياسة الأوروبية"، عن أحمد كمال يونس، من مقدمة ترجمته لرسائل فارسية لمونتسكيو، دارسعاد الصباح، الطبعة الثانية، 1992. دون أرقام صفحات.

¹. الدهشة من "بابور البر" [القطار]، كما في "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"، و"السلك" [الهاتف]، والغريب أن أحمد الكرودوي يرد هذا الاختراع إلى صبيان طنجة، كما في "التحفة السنوية للحضرة الحسنية بالملكة الاصبينولية"، والانتباه إلى أن مصدر العلم عندهم أنهم "اتبعوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظرية، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولا زالوا يستطيعون بقولهم أشياء كثيرة" كما يقول الطاهر الفاسي في الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية،

السلوي سلطان وقته إلى إرسال البعثات العلمية إسوة بما صنع محمد علي¹، وكانت صحيحة الحجوي أن "الإسلام أزهى الأمم في علومه في الوقت الحاضر"، وأن لا قيادة إلا على أساس العلم، رابطا بين العلم والتقدم²، خاصة أن العلم تجلى مرتبطا بالمهارة والتقنية، فلم يعد العلم ينمي المعرفة فقط، بل أضحي يزود بالمعرفة التقنية. وهو معطى جديد، فكانت صحيحة أحمد الرهوني القوية "عندما تسأل: ما هو العلم، فأجاب: هل هو الفقه أو النحو أو الحديث؟ لا لا، هو الهندسة والكيمياء لا غير"³، داعيا الشباب، الذين هم كل الأمل، دون الشيوخ والكهول، إلى تعلم هذا العلم الذي "عم كل العالم الأرضي ولم يبق منه إلا نحن المغاربة.. لذا وجب" أن نتعلم كما تعلموا"⁴. إن الفقيه الرهوني الذي ركب الطائرة قال: "إنا" ما ركبنا الطائرة وإنما ركبنا العلم، إذ العلم هو الذي صنع الطائرة وسيرها في الهواء"⁵. وإن كان بعض الرحالة الآخرين نظر باستهانة إلى الحضارة الغربية ورأها نتيجة ما أسماه ب "العقل الظلماني"، فليس ذلك إلا دليلا على صعوبة التخلص من النظرة المعيارية التي تكرست في الأذهان لقرون عديدة⁶.

¹ - يوميات رحلة بن سعيد السلوي إلى فرنسا، ضمن مؤلف التعريف ببني سعيد السلويين، إعداد مصطفى بوشعراء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ج 1/17، 1991.

² - الحجوي الثعالبي، محمد بن الحسن، الرحلة الأوروبية، تحقيق سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2003

³ - الرهوني، أحمد، الرحلة المكية، تطوان، 1941

⁴ - الرهوني، أحمد، الرحلة المكية، تطوان، 1941

⁵ - الرهوني، أحمد، الرحلة المكية، تطوان، 1941

⁶ - انظر مثلا موقف ابن خلدون المتناقض من العلوم الفلسفية، إذ في الوقت الذي يعتبر العلوم الحكمة الفلسفية إنشاء عقليا طبيعيا. وانها واحدة عند الأمم جميعها، وأن دورها هو تقويم العقل، ينتقل إلى القول بإنها تفسد العقل لأنها تورثه الشكوك. المقدمة صص المقدمة ج 2 ص 358، وج 3، ص 205، وج 3، ص 181.

رأينا أنفسنا في تفوق الغرب العلمي، ورأينا أنفسنا في الهزائم العسكرية، ورأينا أنفسنا في المسافة العلمية، ونرى أنفسنا اليوم في انهيار اليقينيات في قلوب وعقول الشباب العربي، نتيجة ما نعيشه من أحداث جسام يوشك أن تتداعى بسببها أركان بيتنا الحضاري، فهل يمكن أن يدعي أحد اليوم أن الحق واحد لا يتعدد أم أن عصر التسامح والنسبية قد أشرع أبوابه التي لن تغلق أبداً؟. وحتى يظل الإشكال حاضراً نقول: إن الإلف والثقافة و"القراءة الانحيازية التي تمثل منظومة دفاعية ممتازة ضد التحليل"¹، كما ينبه بيير بورديو، كل أولئك قد يظل عاملاً على تسوية الفرقة والخصام². وكأن القدر ينطق بقوله تعالى: "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم" [سورة هود 118 / 119]. نقول هذا حتى لا نبرح أرضية الإشكالات لعدم ثبات العلم، من جهة، بسبب التغير المذهل المتسارع في مجالاته المختلفة، ومن جهة أخرى بسبب بطء العقلية في متابعة هذا التسارع، واستيعاب الجدة، والتكيف معها.

والدليل على ذلك أننا ما زلنا إلى اليوم نردد أنّ العلم الممدوح هو علم خاص يجب الاعتناء به وما سواه من العلوم هو علم فضولي لا ينبغي صرف الوقت في تعليمه وتعلمه، وأن ذلك العلم هو العلم الشرعي المنحصر في كتاب الله وسنة نبيه، وأن ذلك هو المقصود من قوله تعالى "يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أتوا العلم درجات" [المجادلة: 11]، وأنه كذلك هو العلم المقصود بالنور الذي يمشي به الإنسان في الناس. فالعلم هو العلم الشرعي، والعلماء هم علماء الشريعة وفقهاؤها³.

إن النّظام الفكري السائد في المجتمع الإسلامي أولى للعلوم الشرعية الصدارة الكبرى حتى إن الشّاطبي لما تنقل في العلوم عقلياتها وشرعياتها، ولم يقتصر على علم دون علم، ولا أفرد من

¹. بيير بورديو، المصدر نفسه، ص 14

². يقول بيير بورديو: "أحسست أنني لو كنت يابانيا لما كدت أحب جل الأشياء التي يكتبها غير اليابانيين عن اليابان" العقلانية العملية، المصدر نفسه، ص 13.

³. الأنصاري، محمد، أحكام ولاية العلم والعلماء، دار السلام، الطبعة الأولى، 2012 ص 19.

أنواعه نوعا دون آخر، فخاض لجج العلوم كلّها حتى كاد يتلف في بعض أعماقها، كما يقول¹، انتهى به المطاف إلى "أن كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا في سبيل الهداية لقائل أن يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالا يعتد به فيه، وأن الدين قد كمل، وأن السعادة الكبرى فيما وضع، والطلبية فيما شرع، وما سوى ذلك فضلا وبهتان وإفك وخسران، وأن العاقد عليهما بكلتا يديه مستمسك بالعروة الوثقى ومحصل لكلية الخير دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلام وخيالات وأوهام"². وإذا كان هذا مقبولا، عندنا نحن المسلمين، في العلم الشرعي العملي، فما القول في العلوم النظرية؟

إننا لا نستغرب إذا رأينا كثيرا ممن سلكوا في تخصصاتهم سبل العلوم الرياضية والفيزيائية وغيرها اليوم، يتركون علومهم الأصلية ويفزعون إلى التخصصات الشرعية يدرسونها ويطمعون في التجويد فيها، وبخاصة علوم الحديث، لأنها عندهم أقرب العلوم إلى الخلاص. وبما أن العلوم الشرعية في العادة لا تقبل مشاركا، فإنهم ينغمسون فيها انغماسا كليا ويذهلون عن العصر، رغم أنه من الممكن أن يأخذوا من العلم الشرعي ما هو واجب عيني في الاعتقاد والعبادة، وهو جزء يسير محدود، وينصرفون إلى المختبرات يتخذونها مساجد للعبادة الجليلة في الإسلام؛ عبادة التفكير والتدبر والاعتبار والتجارب.. خاصة أن الدراسات الحديثة أثبتت أن "العلم لا يتعارض بالضرورة مع الإيمان الخالص"³، و"أن وهم التعارض الأزلي بين العلم والإيمان هو نتاج رؤية علمانية ضيقة"⁴.

ترتبط الحدائث ارتباط وثيقا بالعلم وفلسفته، وإننا اليوم مدعوون إلى تعميق المحبة بين العلوم وإشاعة السلام بين المعارف بروح نقدية واضحة فما وافق الحق قبلناه، وما خالفه، مما

¹ الاعتصام، المجلد الأول، نشرة أبو عبيدة مشهور، مكتبة التوحيد، الطبعة الأولى، 2000 ص 13

² الاعتصام، المصدر نفسه، ص 14.

³ البعزاتي، الاتصال بين المعرفة والمعتقد، المصدر نفسه، صص 263-264.

⁴ البعزاتي، المصدر نفسه، ص 266.

نعتقد أنه حق، شكرناهم وعذرناهم، وصية رشدية للمصالحة بين العلوم، نسوقها هنا بتصرف غير مخل. مع العلم أن مسيرة العلم أسهمت فيها الحضارات كلها، ولا يمكن رد ذلك إلى ملة واحدة أو عرق واحد أو وطن واحد، وعلى الأقل.

خاتمة

تعددت دلالات العلم في القرآن الكريم، وتفاوتت رتب أهله، وتطور مفهوم العلم، باعتباره مفهوما ثقافيا، عبر العصور وعبر الثقافات؛ فقد عنى عند المسلمين في الفترة الأولى من وجودهم القرآن الكريم والحديث؛ وارتبط بالنصوص الشرعية فقط¹، ثم أصبح العلم هو الفقه عند الفقهاء، ثم الكلام عند المتكلمين، ثم الحديث عند المحدثين، ثم العلوم العقلية عند الفلاسفة، وأصبح "صفاء القلب وطهارته ... يوجب تجلي العلوم فيه بذاته" عند الصوفية²، وتفرعت شجرة العلم، وكلُّ يطلب من الحق جانبا. وعاش المسلمون في عالم منفتح فأقبلوا على المعارف المختلفة وطعموا بثقافتهم الأصيلة³. لكن حدث لهم ما حدث لكل الثقافات القديمة من تنازع بين المعارف وصراع بين أصحابها، فلحق الأذى المجتمع العلمي لطغيان ما أسميناه ب"وهم الكفاية المعرفية"، فكانت النتائج وخيمة على العقل المسلم باعتباره جزءا من العقل الإنساني العام لولا أن جزءا منه انفصل بالتَّورات العلمية فخرج من طور إلى طور أرحب وأوسع، ثم يريد الجزء الآخر أن يلحق بعد سبات ...

¹. بل إن سعيد بن جبير حصر العلم فيما كان عليه البديريون فقط، ولما مات عمر بن الخطاب قال ابن مسعود: "لقد مات تسعة أعشار العلم". أحكام ولاية العلم، المصدر نفسه، ص 49. وص 50

². أبو بكر بن العربي، العواصم والقواصم، نشرة عمار الطالبي، الشرطة الوطنية للنشر والتوزيع الجوائز 1981 ص 23

³. يبدو أن ذهاب البعض إلى القول بأن تصحيح مفهوم العلم يجب أن يرتبط بفهومات جيل خير القرون يذهل عن تاريخية المعرفة والتطورات التي دخلت على المفهوم التي هي أساس الانتباه إلى قيم العصر انطلاقا من حاجة الحاضر وتراث الأمة بكامله. يراجع أحكام ولاية العلم، المصدر نفسه، ص 71.

إننا نحن المسلمين اليوم، وقد انفتحنا على العالم من حولنا، وسكنناه وسكننا حتى أصبح في كثير من الأحيان من الصعب التمييز بين الأنا والآخر، في حاجة إلى بناء معرفة تلائم ضروراتنا وحاجياتنا وتحسيناتنا في عصرنا هذا، مع الأخذ بالاعتبار الشروط التاريخية والثقافية لبناء المعرفة الإسلامية، فالمعرفة تبنى ولا تعطى، والبناء لا يكون إلا "حالة خاصة من حالات الممكن" كما يقول غاستون باشلار، فنحن في حاجة إلى أن نشكل واقعنا ضمن ضروب من التشكيلات الممكنة، وهذا لا يكون إلا باجتهاد جماعي منفتح انفتاحا مطلقا على المعرفة المتاحة لنا في عصرنا هذا، مع الانتباه إلى حدة الإشكالات المطروحة والتي يشكل استحضارها مهمازا للفكر وتحريكا للهمم.

المصادر والمراجع

1. الكندي، أبو يعقوب..رسالة الحدود والرسوم، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الثانية، مطبعة حسان، القاهرة، ب.ت.
2. في الصناعة العظمى، إربد، الأردن، تحقيق عزمي طه السيد أحمد، عالم الكتب الحديث، 2018.
3. العامري، ابو الحسن.السعادة والإسعاد، في السيرة الإنسانية، تحقيق أحمد عبد الحليم عطية، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2018.
4. أبو الوليد، ابن رشد.. بداية المجتهد، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1996،
5. الفارابي، أبو نصر.. إحصاء العلوم، نشرة علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، 1996.
6. كتاب الحروف ، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، 1969.
7. ابن رشد، أبو الوليد.تلخيص البرهان، تحقيق جيرار جهامي، ط 1، 1992،
8. ابن العربي، بو بكر. - العواصم والقواصم، نشرة عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1981 .
9. - قانون التأويل، تحقيق محمد السليمانى، دار الغرب، تونس، الطبعة الثانية، 2010،
10. الرازي، فخر الدين..التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت ج 2.
11. العز، بن عبد السلام. - القواعد الكبرى، الجزء الأول، دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة 2015.
12. الزبيدي، المرتضى..تاج العروس من جوهر القاموس، نشرة عبد المنعم خليل وإبراهيم وكريم سيد محمد محمود ج 33، دار الكتب اللبية بيروت لبنان.

13. الطيب السنوسي، أحمد.. الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية، دار التدمرية . دار ابن حزم، الطبعة الثانية، 2008.
14. ابن نجيم، زين الدين. الأشباه والنظائر: على شبكة النت الموقع :
<http://www.islamicbook.ws/asol/alashbah-walndhaer-labn-njim-.pdf>
15. الإيجي، عبد الرحمن.. المواقف، عالم الكتب. بيروت. ب. ت.
16. العسكري، أبو هلال.. الفروق في اللغة، الباب الرابع، في الفرق بين أقسام العلوم،
<https://ia801407.us.archive.org/1/items/FP52567/52567.pdf>
17. . الطيب السنوسي، أحمد. . الاستقراء وأثره في القواعد الأصولية والفقهية، دار التدمرية . دار ابن حزم، الطبعة الثانية، 2008.
18. ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن الشهروري.. مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيوت، 2005.
19. . الجرجاني، علي بن محمد. . كتاب التّعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1988.
20. الغزالي، أبو حامد.. المستصفى، دار الفكر، بيروت، د. ت.
21. . ابن فورك، محمد بن الحسن.. "الحدود" في الأصول، تحقيق محمد السليمان، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1999.
22. . التهانوي، محمد علي.. كشف اصطلاحات الفنون، ج 2، مكتبة لبنان ناشرون، ط، 1، 1996.
23. ابن خلدون، عبد الرحمن.
24. . المقدمة، نشرة عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ب. ت.
25. مركز ابن البنا.

26. مفهوم العلم في التراث العربي الإسلامي، مجلة الدليل، العدد الأول 2013.
27. ابن حزم، أبو علي.. رسالة في مراتب العلوم، ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة لعربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى 1983 الجزء الرابع.
28. ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم الأنصاري.
29. إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم، تحقيق عبد المنعم محمد عمر، دار الفكر العربي، القاهرة، ب.ت.
30. الشاطبي، أبو إسحاق.. الموافقات، نشرة أبو عبيدة مشهور، المجلد الأول، دار عقان، الطبعة الأولى، 1997.
31. الاعتصام، المجلد الأول، نشرة أبو عبيدة مشهور، مكتبة التوحيد، الطبعة الأولى، 2000
32. الأمدي، علي بن محمد.. الأحكام في أصول الأحكام، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2008.
33. ابن سينا، أبو علي. في أقسام العلوم العقلية ضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، تحقيق حسن عاصي، دار قابس، الطبعة الأولى، 1986.
34. الكلاعي، أبو الربيع.. نونية، ضمن مجموع في كتاب مخطوط بالخزانة العامة بتطوان، رقم 463.
35. الشوكاني، محمد بن علي.. إرشاد الفحول، المجلد الأول، تحقيق شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، الطبعة الثالثة، 2009.
36. الباجي، أبو الوليد.. وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبي الوليد الباجي الأندلسي لولديه، تحقيق عبد اللطيف بن محمد الجيلاني، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ط2.
37. البعزاتي، بناصر. الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب الرباط، ط &، 2005.

38. بعض سمات التدليل الخلدوني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 29، 2009.
39. المعرفة والمعتقد، مجلة يتفكرون، العدد الخامس، 2015.
40. بورديو، بيير.. العقلانية العلمية، حول الأسباب العلمية ونظرياتها، ترجمة عادل العوا، دار كنعان، للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2000.
41. المراكشي، محمد بن عبد الملك.
42. الذيل والتكملة، السفر الثامن، تقديم وتحقيق محمد بنشريف، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.
43. الذيل والتكملة السفر السادس، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1973.
44. الرعييني، ابن الفخار.. برنامج الرعييني، تحقيق إبراهيم شيوخ، دمشق، 1962.
45. المقري، أحمد.. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1968.
46. بورشاشن، إبراهيم. . الفقه والفلسفة في الخطاب الرشدي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2010.
47. مع ابن طفيل في تجربته الفلسفية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2010.
48. الخطابي، أبو سليمان.. "معالم السنن"، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، طبعه وصححه محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب الطبعة الأولى 1932.
49. أبو الفرج، ابن الجوزي.
50. الحث على حفظ العلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1985.
51. الفاسي، محمد الطاهر بن عبد الحمن.

52. الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967.
53. اليوسي، الحسن.. المحاضرات، تحقيق محمد حجي، وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2006.
54. مونتسكيو، شارل.. الرسائل الفارسية، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، 1992. دون أرقام صفحات.
55. الكرودوي، أحمد بن محمد.. التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية"، المطبعة الملكية، 1963.
56. السلاوي، ابن سعيد.. يوميات رحلة بن سعيد السلاوي إلى فرنسا، يومياً ضمن مؤلف التعريف ببني سعيد السلاويين، إعداد مصطفى بوشعراء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ج 1/17، 1991.
57. الحجوي الثعالبي، محمد بن الحسن. الرحلة الأوروبية، تحقيق سعيد الفاضلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2003.
58. الرهوني، أحمد.. الرحلة المكية، تطوان، 1941.
59. راشد، رشدي. العلم في الحضارة الإسلامية والحداثة الكلاسيكية، ضمن أبحاث في التراث العلمي، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت 2004.
60. يحي، عثمان.. مؤلفات ابن عربي تاريخها تصنيفها، ترجمة أحمد الطيب، الهيئة المصرية العلمية للكتاب، 2001.
61. الأنصاري، محمد.. أحكام ولاية العلم والعلماء، دار السلام، الطبعة الأولى 2012.
62. عبد الباقي، محمد فؤاد.. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ب.ت.

63. البقاعي، برهان الدين.. إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر، تحقيق سليمان بن مسلم الحرش، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، 2001.
64. الماوردي محمد بن حبيب، . أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1978.
65. اليوسي، الحسن من مسعود، . القانون في أحكام العلم، تحقيق حميد حماني اليوسي، مطبعة فضالة، المحمدية، 2013.